

الفصل الثاني عشر

كيف
تحسن أسلوبك...؟



obeyikan.com

الفصل الثانى عشر

كيف تحسن أسلوبك...؟

كان رجل إنكليزى عاطل عن العمل تعوزه الموارد المادية، يسير فى شوارع فيلادلفيا؛ بحثاً عن وظيفة.

دخل مكتب السيد بول جيبونز، رجل الأعمال الشهير فى المدينة، وطلب أن يجرى مقابلة معه نظر السيد جيبونز إلى الغريب فى ارتياب. إذ أن مظهره الخارجى يبدو ضده. فثيابه رثة بالية، وكتبت على محياه علامات البؤس المادى. وبشيء من الفضول والشفقة، وافق السيد جيبونز على إجراء المقابلة. فقرر أول الأمر أن يستمع للحظة فقط، لكن اللحظات أصبحت دقائق والدقائق ساعة، وما زالت المقابلة مستمرة حتى انتهت. باتصال السيد جيبونز بالسيد رولاند تيلور، أحد أكبر الممولين فى المدينة، الذى دعا هذا الغريب لتناول العشاء معه، ومنحه مركزاً مرموقاً فى شركته. كيف استطاع هذا الرجل الذى تبدو عليه مظاهر الفشل، أن يحقق هذا الإنجاز العظيم فى وقت قصير...؟.

إن السريمكن تلخيصه بعبارة واحدة: إجادة اللغة الإنكليزية. لقد كان فى الواقع خريج أو كسفورد، قدّم إلى هذا البلد بمهمة عمل، انتهت بكارثة، تركته مجرداً من المال والأصدقاء. لكنه تكلم بلغته الأصلية بدقة وسحر، حتى أن المستمعين نسوا أمر حذائه البالى، ومعطفه الرث، وذقنه غير الحليق. فكان أسلوبه جواز السفر، الذى أدخله إلى أفضل دوائر العمل.

قصة الرجل هذا غريبة بعض الشيء. غير أنها تعكس حقيقة أساسية وهي أننا نقاس كل يوم خلال حديثنا. وكلماتنا تعكس تفكيرنا الدقيق، وتخبّر المستمع البصير عن معارفنا، وهي إشارات واضحة عن ثقافتنا وعلومنا. لدينا أربعة روابط مع العالم. ونحن نصنّف ونقيّم طبقاً لأربعة أشياء: بما نفعله، وكيف نبذو، وبما نقوله، وكيف نقوله. ومع ذلك، يبقى الكثيرون يتخبطون في الحياة من دون أن يبذلوا أى جهد فى سبيل إغناء تعابيرهم، بعد الخروج من المدرسة، حتى يجيدون معانيهم ويتحدثون بدقة ووضوح. وغالباً ما يستخدمون عبارات عامية مستهلكة فى المكتب والشارع. فلا عجب أن يعوز خطابهم الوضوح والتفرد. ولا عجب أنهم ينتهكون غالباً قواعد اللفظ المقبولة، ويخرقون قواعد اللغة الإنكليزية نفسها. لقد استمعت إلى خريجي جامعات يتكلمون ويخطئون لغوياً. فإن كان أولئك الجامعيون يقتفون مثل هذه الأخطاء، فما الذى نتوقعه من الذين حُرّموا التعليم بسبب الحاجة المادية وضغوطها...؟.

منذ سنوات، وقفت بعد ظهر أحد الأيام، أحلم فى مدرّج روما القديم تقدم منى رجل غريب، كان معمرًا إنكليزياً. قدّم نفسه، وبدأ يتحدث عن تجاربه فى تلك المدينة الخالدة. ولم تمض ثلاث دقائق حتى بدأ يخطئ أخطاءً لغوية مدهشة. وفى ذلك الصباح، عندما نهض من فراشه، لمع حذائه وارتندي ثياباً أنيقة ليحوز على احترام الآخرين. لكنه لم يحاول قط أن يصقل تعابيرهِ، ويتحدث بأسلوب جيد.

وهو ربما يخجل مثلاً إذا لم يرفع قبعته لتحية سيدة، لكنه لم يخجل أبداً - كلا، حتى أنه لم يدرك - من انتهاك قواعد اللغة، وإزعاج آذان المستمعين. لقد بدا واضحاً من خلال كلماته، ومن استخدامه المحزن للغة الإنكليزية، أنه

لم يكن من أهل العلم.

أعلن الدكتور تشارلز و. إليوت، بعدما كان رئيساً لجامعة هارفرد طيلة ثلث قرن، أنَّ هناك مطلب ذهنى ضرورى، هو جزء من تعليم السيدة أو السيد، ألا وهو الاستخدام الدقيق والصحيح للغة الأصلية. إن هذا إعلان مهم للغاية، فاعمل به.

ربما تتساءل كيف نصبح معتادين على الكلمات ومنحها بأسلوب جميل وصحيح...؟ لحسن الحظ، ليس هناك غموض أو شعوضة بشأن الوسائل التى يجب استخدامها. هذه الوسائل سر مفتوح. فقد استخدمها لنكولن بنجاح مذهل. ولم يستطع أى أميركى أن يحيك الكلمات بمثل براعته، أو يؤلف موسيقى مماثلة للتي ألفها فى نثره. فهل كان لنكولن، الذى كان والده نجاراً بسيطاً أمياً، والذى لم تكن والدته من ذوات الميزات الخارقة، موهوباً منحته الطبيعة هبة تأليف الكلمات...؟ ليس هناك أى دليل يدعم هذا الافتراض.

عندما انتخب فى الكونغرس، وصف لنكولن تعليمه فى السجلات الرسمية فى واشنطن، بصفة واحدة بأنه: (ناقص) فقد ذهب إلى المدرسة أقل من اثنى عشر شهراً فى حياته. ومن كان أساتذته...؟ جميعهم أساتذة متجولون، يطوفون من ولاية لأخرى، ساعين وراء معيشتهم، حيث يستطيعون أن يجدوا قلة من المثقفين الراغبين فى استبدال اللحوم والذرة والقمح بالتعليم. وقد حصل لنكولن على مساعدة ضئيلة منهم، كما استوحى القليل منهم ومن محيطه اليومي.

إن المزارعين والتجار والمحامين والقضاة الذين اختلط بهم فى المحكمة القضائية الثامنة فى إيلينوا، لم يمتلكوا الكلمات السحرية. لكن لنكولن لم

يكن كذلك - وهذه حقيقة مهمة يجب تذكرها - إذ أن لنكولن لم ينفق وقته مع الذين بمستواه الفكرى، أو مع الذين هم أدنى منه. بل اختار رفيقه من نخبة المفكرين والمغنين والشعراء فى كل العصور. فكان باستطاعته أن يردد صفحات كاملة من برنز وبايرون وبراوننغ. كما كتب محاضرة عن برنز. وكانت لديه نسخة عن أعمال بايرون فى مكتبه، وأخرى فى منزله. وحتى عندما كان فى البيت الأبيض، وكانت أعباء الحرب الأهلية المأساوية تثقل كاهله وتخلف خطوطاً عميقة فى وجهه كان دائماً يجد وقتاً لتناول نسخة من أشعار هوادرا وقراءتها فى السرير.

فى بعض الأوقات كان ينهض فى منتصف الليل، ويفتح الكتاب لقراءة القصائد الساحرة والمؤثرة. كما ينهض بعباءة نومه ويتسلل عبر الغرف إلى أن يجد سكرتيره ويقراً قصيدة إثر القصيدة. فى البيت الأبيض، كان يجد الوقت ليردد مقاطع طويلة من شكسبير، وينتقد إلقاء الممثل لها، ويعطى تفسيره الخاص حول ذلك. فكتب إلى الممثل هاكيت يقول: «قرأت بعض مسرحيات شكسبير، وربما قرأتها كأي قارئ غير إختصاصى. قرأت مسرحية الملك لير، ريتشارد الثالث، هنرى الثامن، هاملت، ومكبث. أعتقد أن ما من مسرحية توازى مسرحية مكبث. إنها رائعة!».

كان لنكولن يعشق الشعر. وهو لم يحفظه ويردده سراً وجهرأ فحسب، بل كان يكتبه أيضاً. وقد قرأ بعض أشعاره الطويلة خلال حفلة زفاف شقيقته. وفى منتصف حياته، ملأ دفتر ملاحظاته بكتاباتة الإنشائية. لكنه يخجل من تلك المؤلفات، حتى أنه لم يدع أقرب أصدقائه يطلع عليها.

يكتب روبنسون فى كتابه: (لنكولن كرجل أدب): «هذا الرجل الذى علم نفسه بنفسه، كسى ذهنه بمواد الثقافة الرائعة. لم يذهب كثيراً إلى المدرسة،

بل يعلم نفسه بطريقة متقطعة . وطريقته هي دأبه على التعليم والتدريب .
هذا الفتى الأخرق الذى اعتاد أن يجنى الذرة، ويذبح الخنازير مقابل ٣١ سنتاً فى اليوم فى مزارع بيجون كريك أنديانا، ألقى فى غيتيسبرغ إحدى أروع الخطب التى ألقاها كائن بشرى .

وقد قال تشارلز سومنر بعد فترة قصيرة من وفاته: إن خطاب لنكولن سيبقى فى الذاكرة حتى بعد نسيان تلك المعركة التى حارب فيها مائة وسبعون ألف رجل، وقتل فيها سبعون ألفاً . وإن المعركة ربما تعود إلى الذاكرة بسبب ذلك الخطاب فمن يشك بصحة هذه النبوءة...؟ .

تحدث أدوارد ايفريت لمدة ساعتين فى غيتيسبرغ، وقد نسى كل ما قاله منذ زمن بعيد . لكن لنكولن تحدث أقل من دقيقتين، وقد حاول مصوراً أن يأخذ له صورة أثناء إلقائه الخطاب، لكنه انتهى قبل أن تصبح تلك الكاميرا جاهزة لالتقاط صورته .

نقش خطاب لنكولن على قطعة من البرونز، ووضع فى مكتبة أوكسفورد ليبقى مثلاً لما يمكن فعله باللغة الإنكليزية . وهذا نص الخطاب الذى يجب أن يحفظه كل من يدرس فن الخطابة:

« منذ سبع وثمانون سنة، أنشأ آباؤنا وطناً جديداً فى هذه القارة، يُعرف بوطن الحرية والمساواة .

والآن، ننهمك فى حرب أهلية عظيمة، تراهن عمّا إذا كان هذا الوطن سيدوم طويلاً .

لقد تقابلنا فى حلبة عظيمة فى هذه الحرب، وإنتهينا بتكريس جزء من هذه الحلبة كمثوى أخير لأولئك الذين قدموا حياتهم فى سبيل بقاء الوطن . من المناسب جداً أن نفعل هذا . لكننا، إذا فكرنا ملياً، لن نستطيع أن نكرس

أو نقدر هذه الأرض . فالرجال الشجعان، الأموات منهم والأحياء، الذين كافحوا هنا، كرسوها لأغراض نبيلة، هي فوق طاقتنا الهزيلة .

إن العالم لن يذكر أو يتذكر طويلاً ما نقوله هنا، إلا أنه ينسى ما فعلوه . الأمر يعود إلينا، نحن الأحياء نعمل لتكريس أنفسنا في سبيل العمل الذي لم يُنجز، والذي حاربوا هم من أجله بتفانٍ وإخلاص . لنكرس أنفسنا في سبيل المهمة العظيمة المتبقية أمامنا، ولنتخذ العبرة من أولئك الموتى العظام، الذين منحوا القضية آخر قطرة من دمهم .

ونحن هنا نجزم بأن أولئك الموتى لم يسقطوا هباءً، وبأن هذا الوطن، برعاية الله، ستتولد فيه الحرية من جديد، وبأن حكومة الشعب المنتخبة من الشعب ومن أجله، لن تزول عن وجه الأرض .

هناك فكرة شائعة، تقول إن لنكون هو من أَلَّف العبارة الخالدة التي اختتم بها خطابه . لكن هل ذلك صحيح...؟ .

لقد قدم هرندون، -الشريك القانوني للرئيس لنكون- نسخة من كتاب خطب ثيودور باركر، حيث قرأ الأخير، ووضع خطأً تحت هذه الكلمات التي جاءت في الكتاب: «إن الديمقراطية هي حكومة ذاتية مباشرة، تحكم كل الشعب، ومن كل الشعب، ومن أجل الشعب» . وربما استعار ثيودور هذه العبارة من - وبستر - الذي قال قبل أربع سنوات، أن جوابه الشهير لـ هاين: «إن حكومة الشعب تؤلف من أجل الشعب، وبواسطة الشعب، وتستجيب لكل الشعب» . وربما استعار - وبستر - بدوره هذه العبارة من الرئيس جايمس مونرو الذي عبر عن فكرة متشابهة لها قبل ثلاث قرن . لكن ممن استدان مونرو فكرته...؟ قبل خمسمائة سنة من ولادة مونرو، قال - واكيليف - في مقدمته لترجمة الكتاب المقدس: «إن

هذا الإنجيل هو من أجل حكومة الشعب، من الشعب، ولكل الشعب». وقبل أن يحيا وايكليف، وقبل أربعمئة سنة من ميلاد المسيح، تحدث - كلايون - في خطاب له أمام رجال أثينا عن حكم (من الشعب وبواسطة الشعب ومن أجل الشعب). ومن أي مصدر قديم استوحى - كلايون - فكرته، يبقى أمراً تائهاً في ضباب، وظلمة العصور القديمة.

كم هي الأشياء الجديدة قليلة...! وكم يدين الخطباء العظماء لقراءتهم وإرتباطهم بالكتب...! الكتب...! هناك يكمن السر...! فمن يرغب في أن يغنى ويوسع مخزن كلماته؛ ينبغي عليه أن يغسل، ويصقل ذهنه باستمرار في روافد الأدب. قال جونب برايت: «ما يحزنني حين أكون موجوداً في مكتبة، هو أن الحياة قصيرة جداً، ولا أمل لي بقراءة الماضي الممدود أمامي».

ترك برايت المدرسة في سن الخامسة عشر، وذهب للعمل في مصنع للقطن، ولم تسنح له التعليم ثانية. ومع ذلك، أصبح أحد أشهر الخطباء في عصره حيث اشتهر ببلاغته، وجودة لغته الإنكليزية. كان يدرس ويقراً وينسخ دفاتر الملاحظات، ويحفظ مقاطع طويلة من شعر بايرون وميلتون وشكسبير. كان يقرأ (الفردوس المفقود) للشاعر ميلتون كل سنة؛ من أجل إغناء كلماته.

قرأ تشارلز جايمس فوكس كتابات شكسبير بصوت مرتفع؛ كى يحسن أسلوبه. وقد دعا غلادستون مكتبته (معبد السلام)، حيث احتفظ فيها بخمسة عشر ألف كتاب. واعترف بأن ما ساعده، هو قراءة أعمال سانت أوغسطين، بيشوب باتلرا، دانتي، أرسطو، وهوميروس. كانت الإلياذة والأوديسة تطربانه حتى أنه كتب ستة كتب عن شعر وزمن هوميروس.

يقال أن روبرت لويس ستيفنسون من أحب الكتاب في اللغة

الإنكليزية. كان ستيفنسون كاتباً لدى كاتب. فكيف نشأ لديه هذا الأسلوب الرائع الذى منحه الشهرة..؟ لحسن الحظ، أخبرنا القصة بنفسه. «عندما أقرأ كتاباً أو مقطعاً يعجبني، حيث يقول شيئاً، ويترك تأثيراً ملائماً، وحيث هناك قوة جاذبة فى الأسلوب، أجلس فى الحال وأهينى نفسى لاكتساب هذه الميزة. لم أكن ناجحاً. كنت أعرف ذلك. فحاولت ثانية، وفشلت ثانية. وكنت فاشلاً دائماً. وأخيراً، ومن خلال فشلى، اكتسبت تدريباً فى الإيقاع والتناغم والتأليف والتجانس.

وهكذا انكبت على قراءة هازلين، ولامب، وردسورث، وسير توماس براون، وديفو وهاوثورن، ومونتايين».

هذه هى الطريقة لتعلم الكتابة، إن أعجبتك أم لا. وإن استفدت منها أم لا، تلك هى الطريقة. إنها الطريقة التى من خلالها تعلم كيتس، ولن يكون هناك أدب أكثر رقة من أدب كيتس.

إن أسلوبه الذى يصعب تقليده هو النقطة العظيمة التى تتلأأ، وتبقى بعيدة عن متناول الطلاب. دعه يحاول كيفما يريد، فهو متأكد من فشله، لكن هناك قول قديم حقيقى جداً وهو: أن الفشل هو الطريق الأكيد إلى النجاح. . . يكفى الآن أسماء وقصصاً. فالسر قد اتضح. إذ كتبه لنكولن إلى شاب يتوق ليصبح محامياً ناجحاً:

«إن السر يكمن فى الحصول على الكتب، وقراءتها ودراستها بانتباه... إن العمل هو الشيء الأساسى».

تم الكتاب